بناء المجتمع الجزائري بين التنوير والتحرير في فكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

Building Algerian society between enlightenment and liberation in the thought of the Algerian Muslim Scholars Association

ارفيس علي REFICE Ali *
الإيميل: socrates1971dz@Gmail.com
مخبر حوار الحضارات والعولمة . جامعة الحاج لخضر- باتنة 1 -

تاريخ الاستلام: 2019/12/19 تاريخ القبول: 2020/11/26 تاريخ النشر: 2021/01/16

ملخص:

إن الهدف من البحث هو إبراز دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإصلاحي في تغيير أوضاع المجتمع الجزائري وذلك من خلال إعادة بناءه والمحافظة على هويته، وكذلك دورها في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وقد استخدمت المنهج التحليلي، وهذا من منطلق القيام بعملية وصف الأعمال والجهود التي قام بها العلماء المسلمين الجزائريين، ومن نتائج البحث أن قراءة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لواقع المجتمع الجزائري جعلها تدرك أن الأمة بحاجة إلى بناء الإنسان وأن تحرير العقول هو بمثابة الأساس لتحرير الأبدان، فالعدو الحقيقي حسب جمعية العلماء هو الاستعمار الروحي المتمثل في الزوايا والطرقية المنحرفة والبدع والخرافات، وأنه إذا ما تم القضاء على هذا الاستعمار، يسهل القضاء على الاستعمار المادي وهو الاحتلال الفرنسي، لهذا كان خطاب جمعية العلماء شاملا باعتباره قد مس كافة جوانب حياة المجتمع الجزائري العقدي والتربوي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

كلمات مفتاحية: بناء ، المجتمع، التنوير، التحرير، العلماء

*ارفيس علي ، **الإيميل:** socrates1971dz@Gmail.com

Abstract:

The aim of the research is to highlight the role of the reforming Algerian Muslim Scholars Association in changing the conditions of Algerian society by rebuilding and preserving its identity, as well as its role in resisting the French occupation, and I have used the analytical method, and this is from the point of view of the process of describing the actions and efforts made by scientists The Algerian Muslims, and one of the results of the research is that the reading of the Association of Algerian Muslim Scholars on the reality of Algerian society made it realize that the nation needs to build a person and that the liberation of minds is the basis for the liberation of bodies. The real enemy according to the Association of Scientists is the spiritual spiritual pain Such as in the corners and road deviant and fads and myths, and that if the elimination of colonization, facilitates the elimination of physical colonialism, which is the French occupation, this was a speech Ulama comprehensive as has touched all aspects of the lives of religious and educational, social, economic and political Algerian society.

Keywords: Building, society, enlightenment, editing, scholars

Résumé:

Le but de la recherche est de mettre en évidence le rôle de l'association algérienne musulmane réformatrice dans la modification des conditions de la société algérienne en reconstruisant et en préservant son identité, ainsi que son rôle dans la résistance à l'occupation française, et j'ai utilisé la méthode analytique, et c'est du point de vue du processus de description des actions et des efforts des scientifiques Les musulmans algériens, et l'un des résultats de la recherche est que la lecture de l'Association des érudits musulmans algériens sur la réalité de la société algérienne lui a fait comprendre que la nation a besoin de construire une personne et que la libération des esprits est la base de la libération des corps. Le véritable ennemi selon l'Association des scientifiques est la douleur spirituelle Tels que dans les coins et déviant la route et des manies et des mythes, et que si l'élimination de la colonisation, facilite l'élimination du colonialisme physique, ce qui est l'occupation française, ce fut un discours Ulama complet comme on l'a touché tous les aspects de la vie de la société algérienne religieuse et éducative, sociale, économique et politique.

Mots clés: Construire, société, illumination, libération, érudits.

- **مقدمة:**

لقد تعرض المجتمع الجزائري لأبشع احتلال عرفه التاريخ، فالاحتلال الفرنسي منذ البداية لم يقتصر على نهب خيرات و ثروات البلاد، بل عمد إلى تدمير الإنسان الجزائري من الداخل وطمس هويته. هذا ما جعل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تدرك منذ البداية أن الأمة الجزائرية بحاجة إلى بناء الإنسان، ولا يكون بناؤه إلا من خلال التفكير في إحداث نهضة شاملة تمس كافة جوانب حياة المجتمع العقدية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وإذا كان مبدأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قائما منذ البداية على أساس إصلاح المجتمع الجزائري، والتفكير في إقامة مشروع نهضوي، فإن التساؤل المطروح: كيف كانت طبيعة المشروع النهضوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ؟ و إلى أي مدى استطاع مشروعها النهضوي أن يشكل لبنة في بناء المجتمع الجزائري ؟

والهدف من البحث هو إبراز دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الإصلاحي والتربوي والتعليمي في تغيير أوضاع المجتمع الجزائري وذلك من خلال إعادة بناءه والمحافظة على هويته، وكذلك دورها في مقاومة الاحتلال الفرنسي. وقد اعتمدت في بحثي هذا على المنهج التحليلي، وهذا من منطلق القيام بعملية وصف الأعمال والجهود التي قام بها العلماء المسلمون الجزائريون، وتتأكد ضرورة استخدام هذا المنهج عند دراسة النصوص التي هي السبيل القويم للتوضيح والاستنباط.

سعت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها إلى بناء أمة بكل مقوماتها في الجانب العقدي والتربوي و الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، وهذا هو الأمر الذي ميزها عن غيرها من حركات الإصلاح الديني التي عرفتها الجزائر قبل تأسيس جمعية العلماء أو الحركات الإصلاحية في المشرق العربي.

أولا: رجوع المجتمع إلى العقيدة الصحيحة

لقد كان تركيز جمعية العلماء على الخطاب العقدي من خلال العمل على تطهير العقيدة الإسلامية من أفكار الزوايا والطرقية المنحرفة، ومما علق بها من الشرك والبدع والأوهام والأباطيل التي شوهتها.

1. مجابهة الزوايا والطرقية المنحرفة

أدرك الاحتلال الفرنسي لما للطرقية من قوة ونفوذ، وعمل على احتوائها واستيعابها لاستخدامها وسيلة لبسط نفوذه وإحكام سيطرته، بتنصيبه من يضطلع لتشويه الدين عن طريق ضعاف النفوس، وهذا ما جعل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تدرك أن هذه:« الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين، وأنها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا، و أننا حين نقاومها نقاوم كل شر، وإننا حين نقضي عليها نقضي على كل باطل ومنكر وضلال. ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة

الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة، ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان، ومع ما فيها من إفساد للعقول وقتل للمواهب». (الإبراهيمي م.، الطرق الصوفية، 2008، صفحة 52)

ومن هذا المنطلق توصلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ نشأتها إلى قناعة بأن الجزائر تواجه استعمارا ماديا فرنسيا واستعمارا معنويا طرقيا صوفيا وأنهما متحالفان معا ضد المجتمع الجزائري. ورأى الشيخ ابن باديس والشيخ الابراهيمي أن البدء بمحاربة الطرقية والصوفية المنحرفة هو المدخل السليم لمحاربة الاستعمار الفرنسي، حيث كان من نتائج الدراسات المستمرة للمجتمع الجزائري بينهما منذ اجتماعهما في المدينة المنورة أن :«البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه: الأول استعمار مادي وهو الاستعمار الفرنسي، يعتمد على الحديد والنار والثاني استعمار روحاني، يمثله مشائخ الطرق المؤثرون في الشعب والمتغلغلون في جميع أوساطه، المتجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية. الاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، ومظهرهما معا تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة. فكان من سداد الرأي واحكام التدبير بيني وبين ابن باديس أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنه أهون وكذلك فعلنا» (رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، 1981، صفحة 236)

2. تطهير العقيدة من الشرك والبدع

توصلت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى أن نشر العقيدة الصحيحة لا يكون إلا من خلال تطهيرها وتخليصها مما علق بها من شوائب الشرك والبدع، حيث جاء في قانونها الداخلي ما نصه: « العقيدة الحقة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنة. فإذا عرضنا أكثر عقائد الناس على ذلك الميزان وجدناها طائشة، فأي سبيل نسلكه لتقويمها؟ إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلة، فإن التأثير يكون قليلا، لأن النفوس قد اصطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة، والفطر قد فسدت بما لابسها من خرافات وأوهام. فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطرق حكيمة تقرب من أذواق الناس، فإذا ماتت البدع والخرافات، وصفت الفطر من ذلك الشوب سهل تلقين العقيدة الصحيحة وتلقتها النفوس بالقبول» (شيبان، 2009، صفحة 64)

و الشيخ محمد البشير الإبراهيمي قد أكد على أن معظم نشاط الجمعية الأساسي، ومنتهى غايتها، هو رجوع الجزائريين إلى كتاب الله وسنة رسوله، حيث قال:« إن الحد الأخير الذي يحدده التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية إلا كتاب الله وسنة رسوله، ولا سلطان على أرواحهم إلا الله الحي القيوم، ولا مصرف لجوارحهم وإرادتهم

إلا الإيمان الصحيح، تنشأ عنه الأعمال الصحيحة فتثمر آثارا صحيحة... يوم يصبح المسلمون متساوين في العبودية لله، لا يعبدون غيره ولا يدعون سواه، ولا يسلمون وجوههم إلا إليه، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله» (الإبراهيمي م.، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج1، 1997، صفحة 138)

ورجوع المجتمع الجزائري إلى كتاب الله وسنة رسوله وإلى العقيدة الصحيحة، كان من خلال اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتربية النشء تربية إسلامية صحيحة، وبناء الفرد وتحرير العقول قبل الأبدان، وقد خاطب الشيخ مبارك الميلي الجزائريين:« أيها المسلم لست مسؤولا غدا عن شيخ ورث المشيخة عن آبائه وجدوده، أو اشتراها بعرضه ونقوده، ثم هو ليس له من الفضل إلا أنه يفوقك في الجهل ويحسن دونك الدجل، ولكنك مسؤول عن ربك، كيف كانت معرفتك به؟ وعن رسولك، كيف كان جوابك له؟ وعن كتاب وسنة، كيف كان عملك بهما؟ قال تعالى: ﴿ حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون ﴾ [النمل: 84] ، ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ [القصص: 65] ، ﴿ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون﴾ [الزخرف:21] ». (الميلي، 2001، صفحة 445)

ثانيا: دور التربية و التعليم في تنوير المجتمع

أدركت جمعية العلماء خطورة مشاريع الاستعمار ومخططاته، فركزت على التربية والتعليم ، وأولت لهما أهمية، وذلك من خلال إنشاء المدارس الحرة في جميع أنحاء القطر الجزائري، وإعطاء المكانة اللائقة للمعلم.

1. أهمية التربية والتعليم في إصلاح المجتمع

لقد أدركت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ البداية مدى أهمية العلم والتعليم والتربية بالنسبة للأمة الجزائرية التي حوربت في عقيدتها ولغتها وهويتها، فوجهت كل اهتمامها لنشر العلم ، فالشيخ عبدالحميد بن باديس كان اهتمامه الأول تربية النشء وتلقينه العلم الصحيح، لأن:« العلم الصحيح المبني على العقيدة السليمة، هو وحده السبيل إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة... و أن البشرية بدون علم تعود إلى حيوانيتها». (حميداتو، 1997، صفحة 109 ، 111)

واعتبرت جمعية العلماء أن قضية إصلاح التعليم من أهم وأخطر القضايا، لأنه مرتبط ارتباطا وثيقا بصلاح الحياة وإصلاح الأحياء، وقضية إصلاحه من القضايا ا لمتشابكة لأنها لا تهم ولا تخص فردا بعينه ولا طائفة بشخصها، بل هي قضية تخص المجتمع كله بل والأمة بأسرها، وقد أكد ابن باديس على أن إصلاح المجتمع يكون من خلال إصلاح العلماء، ولا يصلح العلماء إلا إذا صلح التعليم، حيث قال:« لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله... وإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم، ونعني بالتعليم

التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه. ولن يصلح هذا التعليم إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته، فقد صح عنه ρ فيما رواه مسلم أنه قال: "إنما بعثت معلما" ». (باديس، 1997، صفحة 217)

كما أن الشيخ البشير الإبراهيمي أدرك دور العلم وأهمية التعليم الذي كان يعتبره وسيلة فعالة من أجل إصلاح أوضاع الجزائر، وهذا بتوعية الشعب وتعليمه مبادئ دينه ولغته، حتى يكون مستعدا للدفاع عنها أمام المستعمر، لذلك اعتبر الإبراهيمي أن التعليم هو عدو الاستعمار، وهذا ما أشار إليه في قوله:« ...كما أن جهنم تتقى بالأعمال الصالحة ، وأساسها الإيمان، فإن الاستعمار يتقى بالأعمال الصالحة وأساسها العلم، وإذا كان العدو الأكبر لجهنم هو العمل الصالح، فإن العدو الأكبر للاستعمار هو التعليم... إن هذه الأمة رضيت لأبنائها سوء التغذية، ولكنها لا ترضى لهم ـ أبدا ـ سوء التربية، وأنها صبرت مكرهة على أسباب الفقر، ولكنها لا تصبر ـ أبدا ـ على موجبات الكفر» (الإبراهيمي م.، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج3، 1997، صفحة 220 ، 221)

ثانيا: مسؤولية المعلم في بناء المجتمع

قد نبه الشيخ الإبراهيمي المعلمين على أنهم رعاة وبناة، وأنهم مسؤولون عن رعيتهم وبنائهم، حيث خاطبهم بقوله:« إنكم رعاة، وإنكم مسؤولون عن رعيتكم، وإنكم بناة، وإن الباني مسؤول عما يقع في البناء من زيغ أو انحراف، وواجب المربي الحاذق المخلص، إذا أراد أن يصل إلى نفوس الأطفال أن يحملهم على طاعته وامتثال أمره بأسهل وسيلة، هو أن يتحبب إليهم، ويقابلهم بوجه متهلل، ويبادلهم التحية بأحسن منها... وإن الصغير لا يفلح في التربية ولا ينجح في القراءة، إلا إذا أحب معلمه كحبه لأبويه أو أعظم، وأحب المدرسة كحبه لبيت أبويه أو أشد». (الإبراهيمي م.، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج2، 1997، صفحة 112،113)

وحثهم على الحرص في إعطاء الأولوية للتربية قبل التعليم:« واحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حاديكم في تربية هذا الجيل الصغير، وهاديكم في تكوينه وهي: أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يؤت في خيبته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق، فمنها كانت الخيبة، ومنها كان الإخفاق». (الإبراهيمي م.، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج3، 1997، صفحة 264)

و كان يؤمن الشيخ الإبراهيمي إيمانا مطلقا بدور المدرسة وأهميتها في المحافظة على هوية المجتمع الجزائري، وكذا الاهتمام باللغة العربية باعتبارها وعاء الإسلام وحافظة قرآنه وتراثه، و المحافظة عليها تعني بقاء الإسلام والعروبة في الجزائر، ومحاولة فرنسا القضاء عليها إنما يستهدف عروبة الجزائر وإسلامها في الدرجة الأولى، لأن المجتمعات تبني :« ما تبني من القصور، وتشيد ما تشيد من المصانع،

وتنسق ما تنسق من الحدائق، وتحف ذلك كله بالسور المنيع، فإذا ذلك كله مدينة ضخمة جميلة، ولكنها بغير المدرسة عقد بلا واسطة، أو جسم بلا قلب، وإذا ذلك كله إرواء للغرائز الحيوانية، وإرضاء للعواطف الدنيا بالمتع واللذات، والتباهي وطلب الذكر، أما إرواء العقل والروح، وإرضاء الميول الصاعدة بهما إلى الأفق الأعلى، فالتمسهما في المدرسة لا في القصر ولا في المصنع، ولو تباهت الأبنية المشيدة بغاياتها، وتفاخرت بمعانيها لأسكتت المدرسة كل منافس» (الإبراهيمي م.، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج3، 1997، صفحة 258)

وإصلاح التعليم والحفاظ على غاياته العلمية والمعرفية، لا بد أن يكون حسب الشيخ الإبراهيمي بعيدا عن الصراع السياسي والإيديولوجي، وأن لا تكون المدرسة ميدان صراع بين الأحزاب، لأن : « التعليم عند الأمم التي عرفت الحياة معدود في المقومات التي هي رأس مال الوطن، ورأس المال يسمو عن الحزبيات... وقد تختلف الأحزاب عند تلك الأمم في فكرة سياسية وترتفع حرارة الخلاف إلى درجة الغليان ولكن محال أن يصل الخلاف أو تمتد أسبابه إلى قدس التعليم ومدارسه ورجاله ونظمه وبرامجه ووسائله، محال ذلك لأن التعليم عندهم فوق الأحزاب وفوق الحزبية وأشرف منهما، ولأنه رأس مال الأمة وذخيرة الوطن، وهما مقدسان عند الأحزاب التي تحترم أممها وأوطانها». (الإبراهيمي م.، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج2، 1997، صفحة 237)

ولا يمكن إصلاح المجتمع أو إحداث مشروع نهضوي حسب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلا من خلال إصلاح المنظومة التربوية، لأن: « صلاح الأمة واستقامة حياتها لن يتحقق إلا بصلاح التعليم ومنظومته، وصلاح التعليم لا يكون إلا بصلاح المعلم، وصلاح المعلم يتوقف على رفع شأنه واحترام مهنته، وتحسين ظروف حياته، وقد اشتعلت غلاء وضنكا وأوغل فيها الضر. إننا في زمن اقتصاد المعرفة ومجتمع المعرفة، فإذا اختلت المعرفة اختل كل شيء بعد ذلك واضطرب، وإذا نمت المعرفة نما الاقتصاد والمجتمع والتقنية وقوي ظهر السياسة واستقام عمود فقرها، فنظرت بعيدا وامتدت قوتها أمدا مديدا». (طالبي، 2010، صفحة 24)

ثالثا: المحافظة على تماسك وحدة المجتمع

حاولت جمعية العلماء من خلال تركيزها على الجانب الاجتماعي بالاهتمام بتعزيز وحدة المجتمع وذلك بإصلاح أخلاقه، وكذا الاهتمام بتربية المرأة وتعليمها باعتبارها الركن الأساسي في بناء الأسرة.

1. الدفاع عن وحدة المجتمع وإصلاح أخلاقه

كان من جملة أهداف السياسة الفرنسية في الجزائر بث الخلاف والشقاق بين أبناء الجزائر ، حتى لا تجتمع لهم كلمة، ولا يتوحد لهم صف، ولا تقوم بينهم رابطة وطنية قوية، تدفعهم إلى الثورة على المستعمر الذي يحتل بلادهم، ومن هذا القبيل:« ادعاء فرنسا بأن الجزائر يسكنها شعبان مختلفان

تمام الاختلاف هما : العرب والأمازيغ، ثم ادعت بأن الأمازيغ يمتون بأصلهم الجنسي إلى أوروبا، وقد عملت منذ البداية على فصل المناطق التي يسكنها الأمازيغ في الجزائر عن بقية القطر، وحاولت فرنسة وتنصير سكانها وادماجهم في الكتلة الكاثوليكية الأوروبية، متعاونة في تحقيق هذا الهدف مع جماعات المبشرين، بل تمادت في عملية بث الخلاف والشقاق حتى بين الأمازيغ أنفسهم، حيث قسمتهم إلى قبائل وشاوية وميزابيين وطوارق». (رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، 1981، صفحة 269)

و قد تصدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لهذه السياسة التي كان ينتهجها الاحتلال الفرنسي، حيث كتب ابن باديس منددا بأحد دعاة التفرقة ومدافعا عن الوحدة القومية للشعب الجزائري تحت عنوان(ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان)، قال:« إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ (البربر) قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر ،وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام ». (رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، 1981، صفحة 270)

كما وجهت جمعية المسلمين الجزائريين عنايتها بإصلاح أخلاق الجزائريين التي تدهورت تدهورا كبيرا نتيجة لفساد العقول وفساد العقيدة الدينية، باعتبار أن الأمم أخلاق، فإذا صلحت أخلاقهم صلحوا، وإذا فسدت أخلاقهم فسدوا، وقد ذهب الشيخ ابن باديس إلى أن الأخلاق تنبع من داخل الفرد، وبالتالي يجب العناية بإصلاح هذا الداخل قبل كل شيء آخر، والوسيلة هي تطهير القلوب وتهذيب النفوس وإصلاح العقائد ، حتى يعمل الفرد على تغيير ما بنفسه كي يغير الله ما به من سوء وانحطاط طبقا لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[الرعد:11]، يقول ابن باديس: «إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر ،وفي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله». (رابح، ابن باديس ونشأة الحركة الاصلاحية في الجزائر، 1975، صفحة 89)

و كان ابن باديس يرى أن التربية الأخلاقية الفاضلة تكون في الأسرة ثم المدرسة ثم المجتمع، وهي العاصم للفتى والفتاة من الانحرافات الخلقية والوطنية معا، لأن:« الشخص الذي لا يستطيع أن يكبح جماح نفسه وشهواته في سبيل مرضات ربه أو مصلحة وطنه، لا يمكن ائتمانه على مصالح الأمة والوطن. حيث كان يعمل على المحافظة على التراث العربي الإسلامي في الجزائر ،بكل إمكانياته ونشره بين أبناء وبنات الجزائر حتى لا تنحرف أخلاقهم عن الجادة القويمة، لأن المحافظة على هذا التراث هو الذي يحفظ الشخصية الجزائرية من الانهيار». (رابح، ابن باديس ونشأة الحركة الاصلاحية في الجزائر، 1975، صفحة 89)

وأكدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على أن الدين الإسلامي مثلما أشار إلى نظافة النفس من الرذائل، ونظافة العقول من الباطل، ونظافة الأبدان من الأوساخ، أشار إلى نظافة أفنية المساكن وساحاتها من الأزبال والقاذورات، لأن:« شأن الناس أنهم إذا نظفوا منازلهم يلقون الأزبال خارجها، يحسبون أنهم بذلك قد نظفوها واستراحوا من عفونتها، مع أنهم بوضع الأوساخ خارجها ما نظفوها ولا أبعدوها عن القذارة ومضارها، فالرياح بهبوبها لا تفتأ تنقل إلى البيوت من ساحاتها الأوساخ وأضرارها وأسباب الأمراض منها، مع ما في وضع الأوساخ بالساحات من جناية على المارين وعلى المجاورين، فالنظافة لا تتم للبيوت إلا إذا نظفن ساحاتها، مثلما تنظف هي وألقي وسخ الجميع في الأمكنة البعيدة الخالية». (الصراط السوي، 2003، صفحة 01)

2. الاهتمام بتربية المرأة وتعليمها

اهتمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتعليم المرأة ودورها في بناء المجتمع، لأنها بمثابة الركن الأساس الذي يقوم عليه بناء الأسرة، فإهمال تربيتها وتركها جاهلة هو هدم لهذا الركن، وتفكيك لبنية الأسرة، وإضعاف لقدرتها على الاضطلاع بمسؤوليتها التربوية والاجتماعية، وقد حرص دائما الشيخ ابن باديس بتربيتها وتعليمها، حيث:« أوجب تعليم المرأة وإنقاذها مما هي فيه من الجهل، ونصح بتكوينها على أساس العفة وحسن تدبير المنزل والنفقة والشفقة على الأولاد وحسن تربيتهم، كما أنه حمل مسؤولية جهل المرأة لأوليائها وللعلماء الذين يقع عليهم واجب تعليم الأمة بأبنائها وبناتها ونسائها ورجالها، على أساس الدين والقومية، إلى أقصى ما يمكن أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء». (حداد ع.، 2016، صفحة 09)

ولما أسس الشيخ ابن باديس جمعية التربية والتعليم بقسنطينة، حرص أن يكون تربية المرأة وتعليمها من أولويات هذه الجمعية، حيث تضمن قانونها الأساسي أن يكون:« تعليم البنات مجانا سواء كن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عن دفعها، وذلك تشجيعا لهن على الإقبال على الدراسة، وزيادة على هذا فإنه كان يتصل شخصيا بالمواطنين يحثهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة التربية والتعليم، وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر، ويطلب من زملائه العلماء إلى تعليم المرأة. ولم يكن كافيا أن تتعلم الفتيات الصغيرات، فقد خصص دروسا للنساء في المسجد الأخضر وغيره من مساجد قسنطينة، وكن يحضرن بأعداد كبيرة حتى ضاقت عليهن جنبات المسجد المخصصة للنساء». (مطبقاني، 1999، صفحة 62)

رابعا: دور الاقتصاد في مجابهة سياسة التفقير

لقد تصدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لسياسة التفقير التي انتهجها الاحتلال الفرنسي، وذلك بإدراكها لدور الاقتصاد وأهميته في القضاء على سيطرة التجار من النصارى واليهود للتجارة والزراعة والصناعة .

1. التصدي لسياسة التفقير

تصدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لسياسة التفقير التي انتهجها الاحتلال الفرنسي، وذلك من خلال ما جاء في دعوتها وأصولها :« أن الإسلام يدعو إلى إشراك الفقراء في الأموال، حيث شرع في مجال التنمية الاقتصادية، وسائل غير الربا والاحتكار مثل القراض، المزارعة ،المغارسة، مما يظهر فيه التعاون العادل بين العمال وأصحاب الأراضي والأموال، و يدعو إلى رحمة الضعيف، فيكفى العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويعان المضطر ويغاث الملهوف وينصر المظلوم ويأخذ على يد الظالم» (بوالصفصاف، 2009، صفحة 155)

فجمعية العلماء عملت على مساعدة الفقراء والأرامل والمساكين والضعفاء، وكان من المجالات التي ركزت عليها المجال الاقتصادي، حيث سعى الشيخ ابن باديس للاتصال بكل فئات الشعب الجزائري ومنهم التجار، وذلك:« لدعم الجمعيات الخيرية وجمعية التربية والتعليم والجامع الأخضر، وتحت سيطرة الاستعمار (المستوطنين) واليهود على التجارة والصناعة والزراعة، كان لا بد لابن باديس أن يفكر في تحطيم هذه السيطرة فسعى أولا إلى تأسيس جمعية تجار قسنطينة عام 1934 » (مطبقاني، 1999، صفحة 121)

2. أهمية الاقتصاد في نهضة المجتمع

كانت جمعية تجار قسنطينة هي النواة التي تأسست على منوالها (جمعية آمال) سنة 1942 من خلال دعوة الشيخ البشير الإبراهيمي إلى توجيه جهود الجزائريين وتجميع قوتهم، وتكوين مؤسسة اقتصادية يساهم فيها التجار وغيرهم برؤوس أموال، تصبح نواة لانطلاق اقتصاد كبير في المستقبل، عوضا عن الاقتصاد الآخر المتمركز في أيدي كبار التجار من اليهود والنصارى، وقد ضمت هذه الجمعية تجارا من جميع أنحاء الجزائر، وكان لها: « نفوذ كبير في الاقتصاد الجزائري حتى أن السلطات الاستعمارية كانت تراقب أعمالها وتحسب لها ألف حساب، حيث أصبحت الجمعية تستورد من الخارج، ونظمت أعمالها برأس مال وطني، وكانوا يستفيدون من ذلك أفرادا، ويستغلون التجار الفرنسيين لصالحهم، وقد ظهر أثر ذلك على المشروعات الخيرية من بناء المدارس والمساجد والنوادي ومساعدة الفقراء». (مطبقاني، 1999، صفحة 121)

لأن الحكمة حسب الشيخ الإبراهيمي تقتضي لكي نحفظ أنفسنا من منافسة كبار التجار من اليهود والنصارى هو:« تأسيس شركات التعاون بين الفلاحين وشركات التعاون بين التجار ،لتقي الصغار من الجانبين شر تحكم الأجانب في أملاكهم ومجهوداتهم، ثم تأسيس مصارف مالية صغيرة، تكون واسطة بين الجميع، وتكون مع ذلك مستودعا للأموال المخزونة المعطلة، ومرجعا لصناديق التوفير والاحتياط التي يجب أن تصحب هذه الحركة» (الإبراهيمي م.، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج1، 1997، صفحة 55)

ولإحداث نهضة شاملة ومنظمة في جميع مجالات الحياة حسب الشيخ الإبراهيمي لا بد من التركيز على أربع مقومات أساسية: الدين والأخلاق والعلم والمال. ولعل أولوية هيئات المجتمع محاربة الجهل بالعلم، ولا يتم ذلك إلا بالمال. والمال:« ليس كبقية مقومات الحياة، بل يفارقها في نظر جوهري، وهو التأثر بالمزاحمة، فالزحام الشديد لا يكون إلا عليه، والتكالب العنيف لا يكون إلا لأجله، وقد تموت في هذا الزحام أمة أو أمم لا تعرف كيف تزاحم ولا تحسن الدفاع حين تزاحم، فالمزاحمة في المال تضر وتنفع. وهذا العلم وهو قرين المال وأخوه في تكوين الحضارة الوقتية تفيد المزاحمة فيه ولا تضر» (الإبراهيمي م.، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج1، 1997، صفحة 54)

خامسا: غرس حب الوطن والمشاركة في تحريره

لقد قامت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال جهودها التربوية والتعليمية بغرس حب الوطن في نفوس طلاب مدارسها وببعث التاريخ الوطني من جديد، وبمشاركتها في ثورة التحرير لأجل استقلال الوطن.

1. غرس الروح الوطنية

لاحظ الاحتلال الفرنسي أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أدخلت بيداغوجية وطنية جديدة في حملتهم التربوية والتعليمية، لأن الشيخ ابن باديس كان قد:« استعمل هذه الطريقة الجديدة في محاضراته في الجامع الأخضر، لكي يعد طلابه لمسؤولياتهم الوطنية، فقد علمهم " المحفوظات العربية" و" الأناشيد الوطنية " وكان الطلاب يحفظون ذلك وينشدونه في المناسبات الاجتماعية والدينية، مثيرين بذلك روح الوطنية والتضامن الإسلامي والحرية». (سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1992، صفحة 400)

ولهذا ساهمت جمعية العلماء خلال العشرينيات في خلق وبعث التاريخ الوطني، فبفضلها تم توعية الجزائريين بتاريخهم وغرسه في أذهان الطلاب، وكانوا يدعون الجزائريين إلى اليقظة من سباتهم، وفي هذا الصدد ظهر مبارك الميلي كأول مؤرخ جزائري حديث، الذي حاول:« أن يعيد كتابة تاريخ الجزائر على أساس وطني من خلال كتابه **(تاريخ الجزائر في القديم والحديث)** ، وباعتبار الميلي عضوا

من العلماء فقد ركز على فكرتي الإصلاح والوطنية في تاريخه. وقد تأسف على أن الجزائريين في وقته كانوا يجهلون كل شيء عن تاريخهم، بينما كانوا يعرفون الكثير عن تاريخ البلاد الأجنبية». (سعدالله، الحركة الوطنية الجزائرية، 1992، صفحة 402،401)

وقد وقفت جمعية العلماء ضد سياسة الاندماج، وكان لموقفها صدى واسعا وعواقب كبيرة لصالح الحركة الوطنية، فعندما نفى فرحات عباس وجود أمة جزائرية، أجابه ابن باديس بعبارات زعزعت من كانوا يعتقدون أن هذه الأمة قد اندثرت فعلا، وبنوا على ذلك أوهام الاندماج في أمة أخرى:« إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، وهي لا تريد أن تندمج». (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، صفحة 372)

و هذا ما جعل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تدرك أن الإعداد للثورة والمطالبة باستقلال الجزائر لا يكون إلا من خلال بناء المجتمع الجزائري والمحافظة على هويته، و يذكر الشيخ محمد خير الدين في مذكراته أنه:« ذات يوم من عام 1933م التف نفر من الشباب المتحمس حول الإمام ابن باديس بنادي الترقي، وطلبوا منه أن يرفع صوته قويا مدويا عاليا مطالبا باستقلال الجزائر وحريتها، فقال لهم رحمهم الله جميعا: وهل رأيتم أيها الأبناء إنسانا يقيم سقفا دون أن يشيد الجدران ؟ فقالوا ـ كلا ـ ولا يمكن هذا، فقال لهم: إن من أراد أن يبني داره فعليه أن يبني الأسس ويقيم الجدران أولا، ثم يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعبا ويقيم أمة، فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف». (خيرالدين، 2002، صفحة 289)

2. المشاركة في تحرير الوطن

مع اندلاع الثورة التحريرية لم تتأخر جمعية العلماء في مساندتها وإصدار البيانات لدعمها، حيث أصدر مكتبها بالقاهرة بيانا حرره كل من محمد البشير الإبراهيمي والفضيل الورتلاني، وكان ذلك يوم 02 نوفمبر 1954، ووزع حينها على الصحافة المصرية ووكالات الأنباء العالمية، ومما جاء فيه:« إن فرنسا ابتلعت أجزاء الوطن الواحد على ثلاث لقم، ثم أوهمتنا وأوهمت العالم أن هذه العملية لا تسمى ابتلاعا، وإنما هي تكييف كيمياوي تصبح به أمة متمدنة، وكذبها الله وكذبها كبع السوء فيها فكنا في حشاها أشواكا تخز وأوجاعا تؤلم، فإذا هدأ الوخز والإيلام فإنما هي هدأة عارضة ثم تعود وستلفظنا مكرهة عند الحشرجة الأخيرة من حياتها، وسنكون سبب موتها» (الإبراهيمي م.، 1997، صفحة 39)

كما وجه الفضيل الورتلاني بيانا في 03 نوفمبر 1954 بالقاهرة، نشر في حينه بالجرائد المصرية وغير المصرية، ومما جاء فيه: « إلى الثائرين الأبطال من أبناء الجزائر: اليوم حياة أو موت، بقاء أو فناء، حياكم الله أيها الثائرون الأبطال، وبارك في جهادكم، وأمدكم بنصره وتوفيقه، وكتب ميتكم في الشهداء الأبرار، وحيكم في عباده الأحرار.... اعلموا أن الجهاد للخلاص من هذا الاستعباد، قد أصبح اليوم واجبا

عاما مقدسا، فرضه عليكم دينكم، وفرضته قوميتكم، وفرضته رجولتكم، وفرضه ظلم الاستعمار الغاشم الذي شملكم، ثم فرضته أخيرا مصلحة بقائكم، لأنكم اليوم أمام أمرين: إما حياة أو موت، إما بقاء كريم أو فناء شريف» (الورتلاني، 2009، صفحة 170 ، 171)

و أصدر كذلك مكتبها بالقاهرة بيانا حرره كل من محمد البشير الإبراهيمي والفضيل الورتلاني، وكان ذلك يوم 11 نوفمبر 1954، ووزع حينها على وسائل الإعلام المصرية ووكالات الأنباء، ومما جاء فيه:« انفجر بركان الثورة المباركة في الجزائر ليلة اليوم الأول من نوفمبر الحالي وقد كنا نحن الجزائريين الموجودين خارج الجزائر نترقب هذه الثورة ونتوقعها، نترقبها لأنها الأمل الوحيد في تحريرنا من العسف الفرنسي الذي لا يعرفه إلا من ابتلي به، ونتوقعها لأن هذا هو وقتها، ولأن فرنسا لا تفهم إلا هذه اللغة ولا يفتح آذانها إلا هذا الصوت» (الإبراهيمي م.، 1997، صفحة 10)

وعندما اندلعت الثورة المسلحة ضد الاحتلال التحق الكثير من تلامذة مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بها، فحملوا السلاح لتحرير البلاد، وقد التحق هؤلاء التلاميذ بالجهاد ضد المحتل الفرنسي، لأن الشيخ العربي التبسي كان قد:« أفتى في بداية الثورة أنه (لا يجوز لأي مسلم دون عذر أن يتخلف عن الجهاد)، وكان يتأسف لأنه غير قادر على حمل السلاح لمرضه وشيخوخته، فكان يقول: (لو كنت في صحتي وشبابي ما زدت يوما واحدا في المدينة أسرع إلى الجبل فاحمل السلاح فأقاتل مع المجاهدين)، ورغم ذلك فإنه التحق بالثورة منذ بدايتها، وكان يجمع لها المال ويعبئ الشعب ويدعوه إلى الجهاد ضد الاستعمار، وعندما نصحه عبان رمضان بالالتحاق بالخارج خوفا من أن يمسه الاستعمار بسوء، رد عليه قائلا : إذا كنا سنخرج كلنا فمن يبقى مع الشعب يوعيه ويعبئه ويحمسه؟» (بلاح، 2006، صفحة 505)

و لهذا لم تكن دعوة جمعية العلماء للجهاد والثورة ضد المحتل الفرنسي قولية فحسب، تعتمد على إصدار البيانات فقط، بل كانت حسب الشيخ أحمد حماني:« قولا وعملا وسعيا وجهادا متواصلا وتضحيات عزيزة، وآلاما جسمية ونفسية، كان لها الأثر الأكبر والحظ الأوفر فيما وصلت أمتنا إليه، ولولا أن هذه الحركة مهدت للثورة المسلحة التي نشبت عام 1374 هـ (1954 م) لما قدر لها أن تجد من النجاح الباهر ما وجدته» (حماني، د.ت، صفحة 52)

- **خاتمة**

بعد دراستنا لدور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في بناء المجتمع الجزائري من خلال إشكالتي التنوير والتحرير، حاولنا أن نستخلص جملة من النتائج:

- لقد أدرك علماء الجمعية بأهمية العمل الجماعي وعدم نجاعة العمل الفردي، لأن نهضة المجتمع الجزائري لا يمكن أن يقوم بها شخص واحد، لذلك كان من الطبيعي أن يتطلع علماء الجزائر إلى تأسيس جمعية تقوم بتعليم الناس وتصحيح أمور دينهم وإصلاح شؤون حياتهم.

- قراءة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لواقع المجتمع الجزائري جعلها تدرك أن الأمة بحاجة إلى بناء الإنسان وصنع الرجال أكثر من تأليف الكتب، وهذا ما تأكد للشيخ عبد الحميد بن باديس حين اعتبر أن الشعب الجزائري ليس اليوم في حاجة إلى تأليف الكتب بقدر ما هو في حاجة إلى تأليف الرجال.

- تحرير العقول بالنسبة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو بمثابة أساس لتحرير الأبدان، حيث رأت أن العدو الحقيقي هو الاستعمار الروحي المتمثل في الزوايا والطرقية المنحرفة والبدع والخرافات، وأنه إذا ما تم القضاء على هذا الاستعمار، يسهل القضاء على الاستعمار المادي المتمثل في الاحتلال الفرنسي.

- خطاب جمعية العلماء المسلمين كان خطابا شاملا، ولم يقتصر على الجانب السياسي أو الجانب التربوي فقط. بل مس كافة جوانب حياة المجتمع الجزائري كالجانب العقدي والتربوي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، لأنها قد استوعبت في خطابها النهضوي مجمل أفكار الحركات الإصلاحية القديمة والمعاصرة.

المراجع:

1. أبو القاسم سعدالله. (1992). الحركة الوطنية الجزائرية. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
2. أبو القاسم سعدالله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
3. أحمد حماني. (د.ت). صراع بين السنة والبدعة. الجزائر: دار البعث.
4. الصراط السوي. (22 نوفمبر, 2003).
5. الفضيل الورتلاني. (2009). الجزائر الثائرة. الجزائر: دار الهدى.
6. بشير بلاح. (2006). تاريخ الجزائر المعاصر. الجزائر: دار المعرفة.
7. تركي رابح. (مارس, 1975). ابن باديس ونشأة الحركة الاصلاحية في الجزائر. الأصالة.
8. تركي رابح. (1981). الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
9. عبد الحميد ابن باديس. (1997). آثار ابن باديس ، المجلد الثاني، ج1 (المجلد 1). الجزائر: الشركة الجزائرية.
10. عبد الرحمان شيبان. (2009). من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. الجزائر: دار المعرفة.
11. عبد الملك حداد. (28 مارس, 2016). الشيخ ابن باديس رائد تعليم البنات ونصير المرأة. البصائر.
12. عبدالكريد بوالصفصاف. (2009). جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى (المجلد 2). قسنطينة، الجزائر: دار مداد يونيفارسيتي براس.
13. عمار طالبي. (22 مارس, 2010). أزمة المنظومة التربوية في الجزائر. البصائر.
14. مازن صلاح مطبقاني. (1999). عبدالحميد بن باديس. دمشق، سوريا: دار القلم.
15. مبارك بن محمد الميلي. (2001). رسالة الشرك ومظاهره. الرياض: دار الراية للنشر والتوزيع.
16. محمد البشير الإبراهيمي. (1997). آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
17. محمد البشير الإبراهيمي. (1997). آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
18. محمد البشير الإبراهيمي. (1997). آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج3. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
19. محمد البشير الإبراهيمي. (2008). الطرق الصوفية. الجزائر: مكتبة الرضوان.
20. محمد الشير الإبراهيمي. (1997). آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج5. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
21. محمد خيرالدين. (2002). مذكرات. الجزائر: مؤسسة الضحى.
22. مصطفى محمد حميداتو. (1997). عبدالحميد بن باديس وجهوده التربوية. الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.